مقام المصريين بين السلائل البشرية

للدكتور محمد شرف

مختارات من محاضرته النفيسة التي ألقاها في المؤتمر السنوي الذي عقده المجمع المصري للثقافة العلمية

تضارب الآراء في اصل المصريين

ان قدماء المصريين لم يدوا لسبهم ، ولكن غيرهم لم ينس البحث عنهُ . ومنذ القدم ما فتئت هذه المسألة تحرك اكثر المؤرخين الى البحث واستقصاء اسرارها ، ولم يكن العلماء بالآثار والمستقرئون اخبار الامم السالفة اقل ولوعاً بدرسها من علماء التسمية او علماء البشرية . والواقع ان الآثار الباقية التي لا تحصى ولا نظير لها ، والتي يفقد مبدؤها في ظلمات العصور الخالية ، وكذا الشعوب التي نزلت بهذا الوادي وورد بها خبر تاريخي ، ظلت تشغل عقول المفكرين والرواد منذ ايام هيرودوتوس . وجميع البينات التي اجمع عليها المؤرخون قديماً ترجع الشعب المصري الى اصل افريقي استقر اولاً في وسط الوادي ثم نزل والنهر نحو البحر المتوسط . والقائلون بهذا الرأي يستندون الى التشابهات الظاهرة في العادات والدين بين سكان المملكة المروية النوبية القديمة وأهل مصر . غير ان العلامة مسبيرو وغيره يجحد هذا الرأي ويستنكره قائلاً في كتابه التاريخ القديم لامم الشرق : « انا نعلم اليوم علم اليقين الذي لا ريب فيه ان النوبة التي عرفت للاغريق لم تستعمر مصر قط في مبدأ التاريخ ، بل بالعكس ، كانت هي مستعمرة مصرية منذ حكم الدولة الثانية عشرة وظلت ملكاً للفراعنة قروناً »

هذا وقد جاءت التوراة برواية قديمة في الصورة الخامسة من سفر التكوين تقول ان مصرايم بن حام جاء وأهله من العراق الى مصر عن طريق برزخ السويس واستقر فيها . وهذه الرواية لم يجهل بها المؤرخون قديماً من امثال طينيوس الذي نسب الى العرب بناء مدينة هليوبوليس القديمة . حقًّا لا يوجد شعب من الشعوب بقي اصله وصور افراده موضوعاً للكلام والمباحثة بين الكتاب القدماء ، وهدفاً لكثير من الآراء المتناقضة غير الشعب المصري . انه ليعسر ان تجد بقعة على الجزء المسكون من الارض الا وقد جعلها احد الكتاب وطناً اصليًّا لاهل مصر . ان اختلاف الفروض وتنوع الاوهام قد امتد عبر دائرة الامكان الى ميدان الخيال الفسيح ، ولكن مناقضة بعضها بعضاً تجرح اكثرها وتبطلها . ولنضرب لكم مثلاً من الفروض التي علقت ببعض الاذهان

١ — يقول نولني Volney الرحالة الشهير في القرن الثامن عشر ان اهل مصر من الزنوج

٢ — واحتذاه وتبع هذا الرأي في هذا الزمن الشرح ريبلي Ripley غير ان زلته هذه التي بنيت وصماً في مقامه العلمي دحضت بأقوال ائمة علماء التشريح حجة

٣ — وجعلهم دنون Denon رحالة القرن الثامن عشر من نوع توقازي كسائر اهل اوربا

٤ — وجعلهم بوانسينه ده سفي Poinsinet de Sivry من ذرية عمارة سلتية نزلت بهذا الوادي وأصلها من غرب اوربا

٥ — وتقصى ونكلمن Winkelmann اصولهم وردها الى مجرة من الصين

٦ — وأكد مورو ده جون Moreau de Jones القول بأن احرار المصريين وأهل الهند الشرقية متحدون في الاصل والصورة ، موطنهم الاول شرق آسيا

٧ — وأشار هكسلي Huxley الكبير الى وجود قرابة بين اهل مصر وأهل اوستراليا الاصليين ، وهذا وهم لم يجد العلامة Owen وغيره مشقة في نفيه تماماً

٨ — وأخيراً القول الذي يردده الكثيرون بأن قدماء المصريين من أصل سامي وان اهل مصر الحديثة عرب . ومع ان الروح العلمية قويت واعتزت منذ القرن التاسع عشر فان عدم تطبيق الاساليب العلمية المتقنة على أكمل وجه في بحث هذه المسألة يفسر لنا كثرة هذه الفروض والاقوال المتباينة . ولعهد قريب جداً كنا نجهل بالرمز الحقيقي لأهل هذه البلاد والسلالة التي ينتسبون اليها ، ونجهل ان كانوا متأصلين في هذا الوادي او نزلوا به من بلاد اخرى . ولم يستطع احد ان يأتي بحل وافٍ مقنع لهذه المسألة الكبيرة المعقدة ، وما زالوا يجادلون في اصولنا ويسألون عن اي اجدادنا ، وهل كانت فطنتهم ومدنيتهم ثمرة نهوض محلي او مكتسب من الخارج . ويسألون عن منبتها احياناً في النوبة والحبشة او الصومال ، وتارة في وسط افريقيا . وتارة في وسط آسيا

٩ — وذهب اشهر المستشرقين والعلماء بمقابلة اللغات امثال Sethe و Steindorff و Ermann و Leeblin و Louth و Ebers و Brugsch الى القول باصل آسوي ، وتبعوا في ذلك مذهب E. de Rouge

وذهب همل Hommel العالم بالسريانية الى نسبة جميع المدنية المصرية الى اصول بابيلونية ، ولكن الكلام عن المدنية شيء وعن اصل القوم شيء آخر ، فلا ينبغي اعتبار هذه الملاحظات المبنية على اوهام لغوية وتخيلات فيولوجية واهية لاضابط لها الا في مقام ثانوي . وكذلك لا ينبغي اعتبار الملاحظات التي اوردها مورغن Morgan واتباعه وهي المبنية على استدلالات أثرية مهمة

١٠ — وقد ارجع شوين فورث العالم بالنبات اصول المصريين الى بلاد اليمن

وحضرموت ، وساق دليلاً ضعيفاً لتأييد رأيه ، هو استيراد شجر السوقم أو الجميز وشجر اللبخ ، زاعماً انها خاصة بجنوب بلاد العرب . ولكن هذا الرأي اتتق بسهولة من ثبوت صلات تجارية وبحرية بين اهل مصر وهذه الجهات منذ اقدم العصور لجلب التوابل والمواد العطرية فضلاً عن ان جيّار ولورتي Gaillard and Lortie وهما احدث الكتاب عن حيوانات مصر القديمة يقولان إن جميع الحيوانات المستأنسة التي عرفت لاهل الامبراطورية القديمة والمتوسطة كانت من الحيوانات المتوطنة في شمال افريقية . والمعروف انه ليس للجمل ، وهو حيوان عربي ، صور على مقابر قدماء المصريين ومعابدهم

١١ — ورأى هارتمان Hartmann ان قدماء المصريين من اصل افريقي ، وكذلك رأى رينخ Reinich الذي يذهب الى حد القول بان جميع اهل اوربا وآسيا وافريقية بما فيهم اهل مصر تحدروا جميعاً من اصل واحد كان موطنه الاول شواطيء بحيرات افريقية الوسطى، وهو ايضاً موطن الغوريلا والبغام (الشمبانزي) وهما اعلى القردة واقربها شبهاً بالانسان

١٢ — وقد اتخذ بتري Petrie وغيره من وجود عرائس الياء (كبيرة العجز) في مقابر قدماء المصريين حجة للتدليل على وجود عنصر البوشمن بين اهل مصر الاوائل . او لا اقل من وجود نسابة بينهم وبين سكان جنوب افريقية

١٣ — واشترك Hamy و Chantre و Petrie و Morton و Nott و Gnoldd في القول بانهم من اصل لوبي، مستندين في ذلك الى تشابه مقاييس العظام والمخلفات الجزفية وغير ذلك

ومهما يكن من حقيقة اصل المصريين ، وسواء قالوا بمصرية اصلهم أم قالوا بغيرها ، فالحقيقة التي لاشك فيها انهم عقب نزولهم بهذا الوادي طبعوا بطابع بيئته المحلية الخاصة به والتي تغلبت عليهم كما تغلبت على سائر الاغراب الذين نزلوا بمصر ، ولا تزال كذلك الى يومنا هذا . وهذا القول الفصل يثبت لكم من البحث الذي اجريناه

طرق تمييز السلائل

قياس الصيغة أو الشكل — العلامات التي اتخذوها لتمييز شعب أو سلالة من اخرى هي الفروق في الشكل الظاهرة عياناً . وقد ذهبت سدًى مجهودات العلماء في العثور على دلالة ظاهرة قاطعة تنبيء عن سلالة المرء ولا يخطأ فيها . ذكروا كل نوع من الاختبارات الشكلية — الجماجم — عظام الانف — محجر العين — الذقن — الفك — الشعر — اللون ، وزعموا أن هذه العلامات الظاهرة وغيرها فرادى او مجتمعة هي الاختبار الغير الكافي للفصل في معرفة سلالة الانسان . ولكنها باجمعها قد تخدع المرء منا

لست أهلاً لان أضع لكل هذه العلامات قدرها الحقيقي، ولكن بعضاً منها كان موضع الفحص

والنص في السنوات الاخيرة من علماء اعلام لاجدال في اقتدارهم ، ومع ذلك لا تزال هذه العلامات متخذة وسأذكر لكم دلائلها عن المصريين وأقول كلمة عن شكل الرأس والانف والشعر واللون

﴿شكل الرأس﴾ — اتخاذ شكل الرأس للمقابلة بين السلائل البشرية قياس خادع قد يحيد عن وجهه ولا يفطن له . والواقع ان هذه مسألة معقدة للغاية إذ لا وجود لجزء من الرأس يحتفظ بمركز ثابت بالنسبة الى سائر الرأس ، وعلى ذلك لا يمكن ايجاد قياس ثابت يعتمد عليه . وكل ما يمكن عمله هو الحكم بالمشابهة او عدمها حكماً يتوقف على اخذ معدل نسب الرأس

ولذلك قد يكون تخمين الخبير بهذه المسائل اهم وأصدق من جداول طويلة لمقاييس مختلفة . ولا تنسوا أن الاستنتاج من الارقام الكثيرة امر شاق للغاية وقد لا يفطن لمرامي الارقام . هذا ولا تنسوا ايضاً صعوبة القياس على الاحياء بالفرجار المحدد ، فالخطأ في ملليمتر واحد قد يؤدي إلى خطأ في وحدات كثيرة . واذكروا اختلاف سمك العضلات الصدغية في الناس ايضاً . لذلك لن يدلنا الدليل الرأسي على شيء كثير ، وغاية ما يفهم منه الحكم بالنظر على قوم صاحب الرأس

ربما كان لبعض الاقوام ميل لاكتساب رأس ذي شكل خاص بهم ، ويرجع هذا الميل لتعرض الواحد منهم بعد مولده ، أو بالاحرى بعد أن تكون امه لقحت به ، لتأثير بيئة واحدة معينة اكثر من رجوعه إلى كونهم من سلالة واحدة

وقياساً هذه الاستاذ بوس Boas في المهاجرين من بلدان اوربا المختلفة الى امريكا الشمالية إيضاح وإثبات لتأثير البيئة الجديدة في تغيير شكل الرأس لدرجة تسترعي الانظار . ولم يفسر سر هذا التأثير حتى الآن . ظهر لهذا العالم من بحث اولاد المهاجرين إلى نيويورك انهُ مهما كانت اوصاف الآباء السلالية فان النسل المولود بعد الهجرة يأخذ في الاقتراب من طرز معين ، ويكثر اقترابه من هذا الطرز كلما طالت إقامة الآباء في امريكا . فمثلاً ابناء الشعوب المستطيلة الرأس تصبح رؤوسهم تدريجاً أقل استطالة او مستديرة كلما طال وجود الآباء في امريكا قبل ميلاد هؤلاء الابناء . بينما أبناء السلالة القصيرة الرأس يصبحون اطول رؤوساً بحيث يقتربون من الطرز المعتدل الاوسط

ربما فهم بعضكم مما كتب بلغات مختلفة ان سعة الجمجمة قد تدل دلالة تميز شعباً من آخر . ولكن هذا امر مشكوك فيه جدًّا . صحيح أن متوسط رأس الاوربي يفضل من هذه الوجهة رؤوس شعوب كثيرة كالهوتنتوت والبوشمن ولكن ينبغي ان لا ننسى التناسب الواجب وجوده بين الرأس والجسد في كل طرز من الاجسام . فالجسم الكبير يكون مصحوباً عادة برأس كبير فاذا ما أبعدنا هذا العامل وجدنا في النهاية امام أشياء مجردة . وقد يخذل الاوربي ويكون اول صارخ من هذه المقابلة المكروهة لان بعضاً من جماجم

الانسان النياندرتالي تفضل في حجمها وسعتها رؤوس اعظم ساسة اوربا وشعرائها وعلمائها

يتضح من كل ذلك وجود عيب في هذا الدليل ، ومع ذلك ستجدون اني اقتبست شيئاً من نتائج الاختبار به لاكمال البينات في هذا البحث

﴿ الشعر ﴾ ١ شعر الاوروبي او الوطي الاسترالي اذا قطع عرضاً ونظر اليه بالمكرسكوب وجد اهليليجي الشكل اي بيضيّ الشكل يحيط به توسان متساويتان ومختلفتان محدباً ومتقابلا الاخصين وكل منهما اصغر من نصف دائرة ٢ — وشعر المغولي او الهندي الاميركي مستدير تماماً او كأنهُ كذلك ٣ — وشعر الزنجي ضيق مسطح كثير الالتفاف والتجعد . وشعر القردة ينمو من أصول غائرة في الجلد وجراب الشعرة كالخط المستقيم يخرج من ظاهر الجلد على زاوية من ٥٠ — ٨٠ درجة

والعقيقة (وهي كل شعر زغب رقيق يكون على جسد المولود حين يولد) هي شعر من نوع شعور القردة ، ويكون كثيراً قبل الميلاد في الناس على اختلاف طروزهم ، واصول شعر العقيقة أيضاً كاصول شعر القرد ونمو على صورته . وفي شعوب كثيرة يكون شعر الصبي وشعر البالغ على هذه الصورة ايضاً . وغالب الظن ان جلد الانسان البدائي كان يحمل شعراً من نوع شعر القردة ، وان كل انواع الشعر الاخرى هي من التخصصات المرتبطة بالاقليم

﴿ اللون ﴾ وان كانت دلالة اللون على السلالة اقل كفاية من دلالة الشعر فهو العلامة التي يتخذها عادة مختلف الناس لتمييز بين شعوب البشر . ومع ان الوان البشرة تختلف باختلاف أصقاع المسورة ، وها شيات طفيفة حتى في السلالة الواحدة فقد اتخذ اللون منذ اقدم العصور لتمييز بين فرق الناس (وكان المصريون اول من سار على ذلك . صور مقابر سيتي وغيره)

ولما جاء لينوس المواليدي الاسويدي الشهير في القرن الثامن عشر بتقسيم ضروب الناس الى اربعة ضروب الابيض القوقازي والاحمر الاميركي والاصفر الآسوي والاسود الافريقي لم يتوهم انهُ آتى باكثر من تقسيم مصطنع . والغالب انهُ كان ايضاً على مذهب بوفون القائل بان الانسان حيثما وجد هو انسان من نوع واحد وان اختضبت بشرتهُ بالوان تختلف باختلاف الاصقاع . ولكن اتباع دارون عند البحث عن تقسيم طبيعي لضروب الناس ارادوا التفريق بين الناس بحسب اصولهم وانسابهم لا بحسب الوانهم ، فالسلالة والنسب في مذهب هؤلاء شيء واحد . وعلى ذلك يجب ان تكون علامة السلالة — اذا كان في الامكان ايجادها — رمزاً لجميع الخواص والاوصاف التي تكوّن الوراثة . يجب ان تكون دليلاً على الانتساب والعزو لاصل معين ودليلاً كأنهُ سلسلة النسب . فهل يصلح اللون ان يكون علامة للسلالة لها هذه الدلالة ؟ كلاّ ، ولماذا ؟

١ — ما الفائدة من اللون بلون او آخر ؟ وهل وجوده يحدث فرقاً يذكر بين الناس؟ أم هو عارض ينتفع به . كان اللون اشأم علامة اتخذت للتفريق بين الناس ، ولا يزال اللون الى يومنا عقبة في التنازع للبقاء وحائلاً دون التقدم المدني . وكان للون شأن عظيم ايضاً في الاختيار الجنسي . فالحيوانات السفلى تسترشد باللون في اختيار الالف او القرين واتقاء ما يضرها وتفضل الالوان الزاهية ، وتتخذ اللون وسيلة للتخفي والامن . فهل جاء لون بشرة الانسان لهذا القصد او للترغيب والتشويق الى الاقتران والائتلاف الجنسي ؟ وان كان اكثر الرجال والنساء الى يومنا هذا يتزوج بعينه لا بعقله فما لا شك فيه ان اللون نشأ مرتبطاً تمام الارتباط بالاقليم . وقد عين يجهو Bagehot عصراً من العصور الخالية سماه بعصر تكون السلائل او الشعوب . في ذلك العصر ظهرت الفروق الجسدية بين فرق الناس وتجلت فروق اللون ، وفي ذلك الوقت كان للانتخاب الطبيعي التأثير الشديد في الجسم ، اذ كان العقل قاصراً ولم يتطور بعد ليكون اكبر عامل في البقاء

والذي اجمع عليه العلماء الاثبات في علم البشرية امثال الاستاذ D'Eure ان الانسان البدائي الحديث نشأ في المنطقة الواقعة بين الاطلنطي والهند ، وسكن ما يعرف الآن بالصحراء الكبرى ومصر وبلاد العرب والعراق ، اذ كانت هذه الاصقاع مروجاً تكسوها الاعشاب والحشائش . سكن هذه الاصقاع المحيطة بالبحر المتوسط عدد كبير من الناس ويزعمون انهم لم يكونوا متجانسين كل التجانس . وانهم كانوا سمر الجلود سود الشعر وعيونهم عسلية . ويقولون انهم عاشوا هناك في ايام انحسار الجليد عن الارض الاوربية بعد العصر الجليدي . ويدعون انهُ لما تغيرت احوال الجو في منطقتهم وعمها الجفاف نزلوا في وادي النيل والعراق وتفرقت جموع منهم شمالاً الى اوربا وشرقاً الى آسيا وجنوباً الى افريقية ، وبدأ كل فرق يتخصص باقليمه

وما اللون والاختضاب إلا ترديد لتأثير النور في الجلد موجود في كل انحاء الكون ، واول وظيفة للون ايقاف زيادة النور التي تضر بالجسم (Leonard Hill 1926) وتظنون ان اسود الناس هم الذين يسكنون الاصقاع الجرداء التي يقع عليها نور الشمس بشدة والتي ينعكس منها الضياء بقوة عظيمة . والاشعة القصيرة الموجة الواقعة بعد البنفسجي من طيف الشمس يتوقف اكثرها امام الطبقة القرنية من الجلد . اما الاشعة الاطول موجة والتي لا تزال ايضاً قريبة من الجانب البنفسجي فتنفذ الى عمق بعيد في الجلد . ولهذين النوعين من الاشعة قوة على حل الانسجة حلاً كيماوياً . والخضاب الموجود في بشرة الجلد يمتص هذه الاشعة ويحولها الى اشعاع اطول موجة وبهذه الكيفية يصون اديم الجلد من اذى الضوء ويضيانه على الجسم

هذا هو تفسير فائدة اللون والتلون . صحيح ان لهذه الاشعة القصيرة الموجة فائدة

حيوية لا تقيم ولكن بشرط الا يمرض الجسم إلاّ للمقدار المناسب منها . واثبت بحث الدكتور Shaxby ان لون الجلد في مختلف الناس مسبب عن مقادير مختلفة من الاسمر والاحمر . وبعض اللون الاحمر لا كله مسبب عن لون الدم الجاري في الجلد . وهذه الاجزاء الحمراء والسمراء توجد في الاوروبي والزنجي وسائر الناس ، ولا نستطيع ايجاد حد فاصل بين الزنجي والابيض بالنسبة للون الجلد ، ومن السهل تتبع كل درجات التفاوت بينهما . والاصفر تفاوت لوني الاحمر والاسمر مناسب لاصقاع متوسطة . وليس عسيراً علينا ان نخطط على خريطة العالم القديم البقاع التي تخصصت فيها الشعوب البشرية ، وظهرت فيها الالوان المختلفة المماثلة لاختلاف الاقاليم . ولا ينبغي ان ننسى ما لمرونة الخلقة وقابلية الفرد للانحياز من الاثر في هذه الصفات اللونية ، تعلمون ان المصري الاسمر قد يبهت لونهُ ويبيض اذا عاش طويلاً في اقليم بارد والانجليزي الاسمر الذي اقام في الهند او وسط افريقية يصبح جلده مشحوناً بخضاب اسمر لا تزيله اطنان الصابون اذا عاد لموطنه

وفي هذا العصر أصبح الاكتساء بالثياب شائعاً بين الناس ، وصارت الاجسام اكثر استتاراً من الشمس ، وابتدعوا وسائل شتى للتظلل والوقاية من اثر ضوء الشمس ، وعم الاغتسال بالصابون واستعمال المجلات ، فهل يكون أثر ذلك بيّن لون الشعوب الملونة وهل فروق اللون آخذة في الزوال والفروق بين الشعوب آخذة في التناقص ؟

لا اعود الى تكرار القول بان العلامات التي تكلمت عنها الآن قد تخدع المعتمد عليها في الاستدلال الى السلالة والتفريق بين الشعوب . والواقع انهُ توجد صعوبات جمة في سبيل تعيين السلالة بالدقة العلمية ، ولا تزال مسألة السلالة محير علماء البيولوجيا ، اذ للحياة صفة فريدة هي قدرتها على التطور والتغير في الانتقال من كائن لآخر . ولكن في المادة الحية شيء من قوة التمسك او التشدد يبقي خواص الحياة في حدود معينة ومتجهة في اتجاهها القديم

ومعنى السلالة هو التمسك والتشدد في الاحتفاظ بخواص معينة اثناء التطور . وليس الولد صوغ أبويه تماماً أي مثلهما في الخلق ، انما ينزع في الشبه اليهما كثيراً

ونموّ الولد الحاصل من اجتماع خلايا التناسل ليس مجرد اضافة خلية الاب الى خلية الام ، او امتزاج الواحدة بالاخرى انما هو ظاهرة يقع فيها شيء من الاختيار . وعبارة اخرى ان شيئاً مما يخصصهُ الابوين للنسل يؤخذ وشيئاً يهمل . وشكل الولد الملائم لما يحيط به هو الشكل الذي يتكشف ويتوالد بعد ذلك . لا اكون مغالياً اذا قلت بعد ذلك ان الدم يحمل جميع الخواص التي تكوّن الوراثة وانهُ شبيه بسلسلة نسب الفرد

[في الجزء التالي من المحاضرة وصف لاستعمال « القياس الدموي » دليلا على تقسيم السلائل البشرية وتطبيق هذا القياس على المصريين والنتائج التي وصل اليها الباحث وهي مخالفة للآراء المذكورة في مطلع المقال]